الإمام مالك

الإمام مالك

مالك بن أنس: دار مع الإمامة، وهجر الدنيا لأنه إمام دار الهجرة، أبدع في الأثر فثار عليه أهل البدع، العقل الغزير علمه أن الوقار ملك، وأن العلم نور، وأن الإمامة مطلب، أسرته يمانية، ونشأته حجازية، وخلافته عراقية، ومدرسته مغربية.

مالك بن أنس في خدمة العلم كأنس بن مالك في خدمة المعلم، تشابهت قلوبهم، لبى نداء الواجب فما أبطأ، ونطق بالحكمة فما أخطأ، ثم قدم للأمة كتاب الموطأ.

خافه أعداء الملة وخصوم الشريعة، فنادوا: (يا مالك! ليقضِ علينا ربك) سكن الدار، وجاور الأنصار، ونشر الآثار.

أرسل إلى العالم الموطأ، فنشر في التمهيد، ورتب في الاستذكار ونثر في المدونة، وضبط في الموافقات، علومه باسقاتٌ لها طلعٌ نضيد، جادل أبا حنيفة، وعلم الشافعي، وورث علمه أحمد.

أما العقيدة: فالاستواء معلوم، والكيف مجهول، والإيمان به واجب، والسؤال عنه بدعة.

وأما الحديث: فثقة الراوي، وعدالة الشيخ، وشهرة المتن، وأما الفقه: فموافقة الأصل، واطّراح الشواذّ، واتباع المشهور.

وأما الزهد: فإظهار النعمة، واجتناب الحرام، ومخالفة الهوى، واطرّاح الدنايا.

مالك بن أنس: هو الإيجاز في بلاغة، والبساطة في عمق، والتواضع في هيبة، رآه أبو جعفر فكبر، وقال: وطئ لنا العلم فقال له: سهل لنا الحكم.

قال له القضاء: {هَيْتَ لَكَ} [يوسف: ٢٣] ، قال: {مَعَاذَ ٱللَّهِ إِنَّهُۥ رَبِّيٓ أَحْسَنَ مَثْوَاىَ} [يوسف: ٢٣] وأتته الدنانير فصاح: {وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ} [الأحزاب: ٣٣] وطلبه المنصب، فنادى: {فَمَآ ءَاتَىٰنِۦَ ٱللَّهُ خَيْرٌ مِّمَّآ ءَاتَىٰكُم} [النمل: ٣٦] (1).

بُشِّر أنس بن مالك بن أبي عامر ذات يوم ببشرى سعيدة، فقد رزقه الله بمولود أسماه (مالكًا) كان ذلك الحدث السعيد سنة ثلاث وتسعين من الهجرة على بقعة من أطهر بقاع الأرض وهي المدينة المنورة، البلد الذي هاجر إليه رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه، فاستنارت بهم وازدانت.

فتح مالك عينيه على الحياة، فوجد التقدير والمهابة يعم المدينة وأهلها، وكيف لا وقد حوى ترابها جثمان رسول الله صلى الله عليه وسلم ودفن فيها، وضمت أرجاؤها حلقات العلم التي تنتشر في كل مكان.

نشأ الطفل في أسرة تشتغل بالعلم، فجده (مالك بن أبي عامر) من كبار التابعين فشجعه ذلك على حفظ القرآن الكريم، فأتم حفظه وأتقن تلاوته، لكنه لم يكتفِ بذلك بل إنه أراد حفظ أحاديث رسول الله صلى الله عليه وسلم فذهب إلى أمه وقال لها: يا أماه إني أحب رسول الله صلى الله عليه وسلم وأريد أن أحفظ أحاديثه، فكيف لي بذلك؟! ابتسمت أمه ابتسامة صافية، وضمته إليها، ثم ألبسته ثيابًا جميلة وعممته وقالت له: اذهب إلى (ربيعة الرأي) - وكان فقيهًا كبيرًا - وتعلم من أدبه قبل علمه.

فجلس الطفل الصغير - مالك بن أنس - يستمع إلى شيخه وينهل من علمه، وبعد انتهاء الدرس يسرع بالجلوس تحت ظلال الأشجار ليحفظ ما سمعه من معلمه؛ حتى لا ينساه، وقد رأته أخته ذات مرة وهو على هذه الحال؛ فذهبت إلى أبيها وقصت عليه ما شاهدته، فقال لها: يا بنيتي إنه يحفظ أحاديث رسول الله صلى الله عليه وسلم وكان مالك بن أنس كغيره

(1) عائض بن عبد الله القرني، سلسلة القمم لأهل الهمم، 4 / 10.

من الأطفال الصغار يحب اللعب؛ فشغله ذلك عن الدرس والعلم قليلاً إلى أن حدث له موقف كان له أثر كبير في حياته، فقد سأله أبوه يومًا في مسألة هو وأخوه النضر، فأصاب النضر، وأخطأ مالك في الرد على السؤال؛ فغضب منه والده، فكانت هذه الحادثة سببًا في عزمه على الجد والاجتهاد في العلم، فذهب من فوره إلى (ابن هرمز) وهو عالم كبير، فأخذ يتلقى العلم عليه سبع سنوات، وكان شديد الحرص على الاستفادة منه خلالها.

قال (ابن هرمز) لجاريته في يوم من الأيام: انظري من بالباب، فلم تر إلا (مالكًا) فرجعت إلى الشيخ وقالت له: لا يوجد إلا ذلك الغلام الأشقر (تعني مالكًا) فقال لها: دعيه يدخل فذلك عالم الناس!! وتعلم منه مالك كيف يرد على أصحاب البدع والضلالات، وأراد مالك المزيد، فذهب إلى نافع (مولى عبد الله بن عمر) أحد الرواة العظام الذين رووا عن ابن عمر أحاديث الرسول صلى الله عليه وسلم وكان ينتظره في شدة الحر يترقب خروجه من منزله، ثم يصطحبه إلى المسجد، حتى إذا ما انتهى (نافع) من أداء الصلاة ومكث برهة؛ انتهز الصبي الصغير الفرصة وسأله في الحديث والفقه، فنهل من علمه وأخذ عنه ما في رأسه من نور رسول الله صلى الله عليه وسلم .

ثم لازم مالك بن أنس المحدث الكبير (ابن شهاب الزهري) ليتعلم على يديه، وحرص على ألا يفوته درس من دروس هذا الشيخ، حتى يوم العيد نفسه وهو اليوم الذي يلهو فيه الصبيان ويمرحون، روي عن مالك أنه قال: شهدت العيد، فقلت: هذا يوم يخلو فيه ابن شهاب، فانصرفت من المصلى حتى جلست على بابه، فسمعته يقول لجاريته: انظري من بالباب، فنظرت، فسمعتها تقول: مولاك الأشقر مالك.. قال: أدخليه، فدخلت، فقال: ما أراك انصرفت بعد إلى منزلك؟ قلت: لا، قال: هل أكلت شيئًا؟ قلت: لا، قال: اطعم، قلت: لا حاجة لي فيه، قال: فما تريد؟ قلت: تحدثني.. قال لي:

هات، فأخرجت ألواحي، فحدثني بأربعين حديثًا فقلت: زدني، قال: حسبك، إن كنت رويت هذه الأحاديث (أي يكفيك هذه الأحاديث إن كنت حفظتها) فأنت من الحفاظ، قلت: قد رويتها، فجذب الألواح من يدي، ثم قال: حدث، فحدثته بها، فردها إليَّ.. أي الألواح.

ولم يكن بالمدينة عالم من بعد التابعين يشبه مالكًا في العلم والفقه، والحفظ، والعزة ولم يجلس للفتوى حتى شهد له سبعون من جلة العلماء أنه أهل لذلك، يقول الإمام مالك: (ما أجبت في الفتوى حتى سألت من هو أعلم مني: هل تراني موضعًا لذلك؟ سألت ربيعة، وسألت يحيى بن سعيد، فأمراني بذلك، فقال له رجل: فلو أنهم نهوك؟ قال مالك: كنت أنتهي، لا ينبغي للرجل أن يبذل نفسه حتى يسأل من هو أعلم منه).

اشتهر الإمام مالك بكتابه (الموطأ) وهو كتاب حديث وفقه معًا، جمع فيه ما قوي عنده من حديث أهل الحجاز وأضاف إليه أقوال الصحابة وفتاوى التابعين، ثم رتبه على أبواب الفقه كالطهارة والصلاة والزكاة، وقد عمل في هذا الكتاب نحو أربعين عامًا، وقد تلقاه الناس بالقبول، وسمى مالك كتابه بهذا الاسم لأنه مهد به للناس ما اشتمل عليه من الحديث والفقه، أو لأن العلماء المعاصرين له بالمدينة واطئوه ووافقوه عليه، وقد طُبِعَ الكتاب كثيرًا في مصر والهند.

يروى في فضله ومناقبه الكثير ولكن أهمها ما روي [عن أبي هريرة يبلغ به النبي صلى الله عليه وسلم :♂**قال ليضربن الناس أكباد الإبل في طلب العلم فلا يجدون عالما أعلم من عالم المدينة**═.

إنه الإمام مالك بن أنس إمام دار الهجرة، وصاحب أحد المذاهب الفقهية الأربعة في الإسلام وهو المذهب المالكي، وصاحب كتب الصحاح في السنة النبوية وهو كتاب الموطأ. يقول الإمام الشافعي: إذا ذكر العلماء فمالك النجم.

هو شيخ الإسلام حجة الأمة إمام دار الهجرة أبو عبد الله مالك بن أنس ابن مالك بن أبى عامر بن عمرو بن الحارث بن غيمان بن خثيل بن عمرو بن الحارث وهو ذو أصبح بن عوف بن مالك بن زيد بن شداد بن زرعة وهو حمير الأصغر الحميري ثم الأصبحي المدني حليف بني تيم من قريش فهم حلفاء عثمان أخي طلحة بن عبيد الله أحد العشرة المبشرين بالجنة.

وأمه هي عالية بنت شريك الأزدية وأعمامه هم أبو سهل نافع وأويس والربيع والنضر أولاد أبي عامر.

ولد مالك على الأصح في سنة 93هـ عام موت أنس خادم رسول الله صلى الله عليه وسلم ونشأ في صون ورفاهية وتجمل

طلب الإمام مالك العلم وهو حدث لم يتجاوز بضع عشرة سنة من عمره وتأهل للفتيا وجلس للإفادة وله إحدى وعشرون سنة وقصده طلبة العلم وحدث عنه جماعة وهو بعد شاب طري.

عن ابن عيينة قال مالك عالم أهل الحجاز وهو حجة زمانه.

وقال الشافعي: إذا ذكر العلماء فمالك النجم.

وعن ابن عيينة أيضًا قال: كان مالك لا يبلغ من الحديث إلا صحيحًا ولا يحدث إلا عن ثقة ما أرى المدينة إلا ستخرب بعد موته يعني من العلم.

- روي عن وهيب وكان من أبصر الناس بالحديث والرجال أنه قدم المدينة قال: فلم أرى أحدا إلا تعرف وتنكر إلا مالكًا ويحيى بن سعيد الأنصاري.

روي عن أبي موسى الأشعري قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :♂**يخرج ناس من المشرق والمغرب في طلب العلم فلا يجدون عالمًا أعلم من عالم المدينة**═ ويروى عن ابن عيينة قال: كنت أقول هو سعيد بن

المسيب حتى قلت كان في زمانه سليمان بن يسار وسالم بن عبد الله وغيرهما ثم أصبحت اليوم أقول إنه مالك لم يبق له نظير بالمدينة.

قال القاضي عياض: هذا هو الصحيح عن سفيان رواه عنه ابن مهدي وابن معين وذؤيب بن عمامه وابن المديني والزبير بن بكار وإسحاق بن أبي إسرائيل كلهم سمع سفيان يفسره بمالك أو يقول وأظنه أو أحسبه أو أراه أو كانوا يرونه.

وذكر أبو المغيرة المخزومي أن معناه ما دام المسلمون يطلبون العلم لا يجدون أعلم من عالم بالمدينة فيكون على هذا سعيد بن المسيب ثم بعده من هو من شيوخ مالك ثم مالك ثم من قام بعده بعلمه وكان أعلم أصحابه.

ولم يكن بالمدينة عالم من بعد التابعين يشبه مالكًا في العلم والفقه والجلالة والحفظ فقد كان بها بعد الصحابة مثل سعيد بن المسيب والفقهاء السبعة والقاسم وسالم وعكرمة ونافع وطبقتهم ثم زيد بن أسلم وابن شهاب وأبي الزناد ويحيى بن سعيد وصفوان بن سليم وربيعة بن أبي عبد الرحمن وطبقتهم فلما تفانوا اشتهر ذكر مالك بها وابن أبي ذئب وعبد العزيز بن الماجشون وسليمان بن بلال وفليح بن سليمان وأقرانهم فكان مالك هو المقدم فيهم على الإطلاق والذي تضرب إليه آباط الإبل من الآفاق رحمه الله تعالى.

قال أبو عبد الله الحاكم: ما ضربت أكباد الإبل من النواحي إلى أحد من علماء المدينة دون مالك واعترفوا له وروت الأئمة عنه ممن كان أقدم منه سنًا كالليث عالم أهل مصر والمغرب والأوزاعي عالم أهل الشام ومفتيهم والثوري وهو المقدم بالكوفة وشعبة عالم أهل البصرة إلى أن قال وحمل عنه قبلهم يحيى ابن سعيد الأنصاري حين ولاه أبو جعفر قضاء القضاة فسأل مالكًا أن يكتب له مائة حديث حين خرج إلى العراق ومن قبل كان ابن جريج حمل عنه.

يروي أبو مصعب فيقول: سمعت مالكًا يقول دخلت على أبي جعفر أمير المؤمنين وقد نزل على فرش له وإذا على بساطه دابتان ما تروثان ولا تبولان وجاء صبي يخرج ثم يرجع فقال لي: أتدري من هذا؟ قلت: لا، قال: هذا ابني وإنما يفزع من هيبتك ثم ساءلني عن أشياء منها حلال ومنها حرام ثم قال لي: أنت والله أعقل الناس وأعلم الناس قلت: لا والله يا أمير المؤمنين قال: بلى ولكنك تكتم ثم قال: والله لئن بقيت لأكتبن قولك كما تكتب المصاحف ولأبعثن به إلى الآفاق فلأحملهنم عليه. فقال مالك: لا تفعل يا أمير المؤمنين، فإن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم تفرقوا في الأمصار وإن تفعل تكن فتنة!!

مواقف من حياة الإمام مالك:

أحمد بن حنبل ومالك:

عن أبي زرعة الدمشقي قال: سمعت أحمد بن حنبل يسأل عن سفيان ومالك إذا اختلفا في الرواية، فقال: مالك أكثر في قلبي. قال: قلت فمالك والأوزاعي إذا اختلفا؟ فقال: مالك أحب إليّ، وإن كان الأوزاعي من الأئمة، قيل له: وإبراهيم (أي النخعي) فكأنه كان يرى أن إبراهيم لا ينبغي أن يقرن بمالك لأنه ليس من أهل الحديث، فقال: ضعه مع أهل زمانه [1].

وأظنك صاحب بدعة:

من أعظم مواقف الحكمة التي وقفها الإمام مالك موقفه مع من سأله عن الاستواء. فقد جاء إليه رجل وقال: يا أبا عبد الله{ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ} [طه: ٥] كيف استوى؟ فما وجد مالك من شيء ما وجد من مسألته، فنظر إلى الأرض، وجعل ينكت بعود في يده حتى علاه الرحضاء [2]، ثم

(1) الحكمة في الدعوة إلى الله تعالى - (1 / 361).

(2) العرق إثر الحمى، أو عرق يغسل الجلد كثرة. انظر: المعجم الوسيط، مادة (رحض) 1 / 334.

رفع رأسه ورمى بالعود، وقال: " الكيف منه غير معقول، والاستواء منه غير مجهول، والإيمان به واجب، والسؤال عنه بدعة، وأظنك صاحب بدعة " وأمر به فأُخْرِجَ [1].

وأرجو أن يكون كلانا على خير وبر:

ومن مواقف الإمام مالك الحكيمة ما ردّ به على بعض العُبَّاد حينما كتب إليه يعظه ويحضه على الانفراد والعزلة عن الناس، ويحضه على العمل، فكتب إليه مالك: " إن الله قسم الأعمال كما قسم الأرزاق، فربّ رجل فُتحَ له في الصلاة ولم يُفتَحْ له في الصوم، وآخر فتح له في الصدقة ولم يفتح له في الصوم، وآخر فتح له في الجهاد، فنشر العلم من أفضل أعمال البر، وقد رضيت بما فُتحَ لي فيه، وما أظن ما أنا فيه بدون ما أنت فيه، وأرجو أن يكون كلانا على خير وبر " [2].

ما تصنعون بربيعة وهو نائم!:

وروى الترمذي في جامعه عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :♂**يوشك أن يضرب الناس بأكباد الإبل يطلبون العلم فلا يجدون أحدا أعلم من عالم المدينة**ـــ قال: وهذا حديث حسن قال عبد الرزاق وسفيان بن عيينه: أنه مالك بن أنس ولقد حدث يومًا عن ربيعة الرأي بن عبد الرحمن فاستزاد القوم من حديثه فقال: ما تصنعون بربيعة وهو نائم في تلك الطاق؟ فأتى ربيعة فقيل له: أنت ربيعة الذي يحدث عنك مالك قال: نعم، فقيل له: فكيف حظي بك مالك ولم تحظ أنت بنفسك؟ قال: أما علمتم أن مثقالاً من دولت خير من حمل علم.

فتوى لم توافق غرض السلطان:

وسعى به إلى جعفر بن سليمان بن علي بن عبدالله بن عباس رضي

(1) أبو نعيم في الحلية 6 / 325، وانظر: سير أعلام النبلاء 8 / 100، 101، 106، ومجموع فتاوى ابن تيمية 5 / 26، 5 / 144.
(2) انظر: سير أعلام النبلاء للذهبي 8 / 114.

الله عنهما وهو عم أبي جعفر المنصور وقالوا له: إنه لا يرى إيمان بيعتكم هذه بشيء فغضب جعفر ودعا به وجرده وضربه بالسياط ومدت يده حتى انخلعت كتفه وارتكب منه أمرًا عظيمًا فلم يزل بعد ذلك الضرب في علو رفعة وكأنما كانت تلك السياط حليًا حلي به وذكر ابن الجوزي في شذور العقود في سنة سبع وأربعين ومائة وفيها ضرب مالك بن أنس سبعين سوطًا لأجل فتوى لم توافق غرض السلطان والله أعلم [1].

وليتني لم أفت بالرأي:

وحكى الحافظ أبو عبد الله الحميدي في كتاب جذوة المقتبس قال: حدث القعنبي قال: دخلت على مالك بن أنس في مرضه الذي مات فيه فسلمت عليه ثم جلست فرأيته يبكي فقلت: يا أبا عبدالله ماالذي يبكيك فقال لي: يا ابن قعنب ومالي لا أبكي ومن أحق بالبكاء مني والله لوددت أني ضربت بكل مسألة أفتيت فيها برأي بسوط سوط وقد كانت لي السعة فيما قد سبقت إليه وليتني لم أفت بالرأي أو كما قال.

وروي أن أبا جعفر المنصور منعه من رواية الحديث في طلاق المكره ثم دس عليه من يسأله فروى على ملأ من الناس ليس على مستكره طلاق فضربه بالسياط ولم يترك رواية الحديث وقال مالك: ما كان رجل صادقًا في حديثه ولا يكذب إلا متع بعقله ولم تصبه مع الهرم آفة ولا خرف.

نسب المرء داره:

وأما زهده في الدنيا فيدل عليه ما روي أن المهدي أمير المؤمنين سأله فقال له هل لك من دار؟ فقال: لا ولكن أحدثك فيه حديثًا سمعت ربيعة بن عبد الرحمن يقول نسب المرء داره.

فلا أؤثر الدنيا على مدينة الرسول صلى الله عليه وسلم :

(1) الحطة في ذكر الصحاح الستة، 1 / 230.

وسأله الرشيد هل لك دار؟ فقال: لا فأعطاه ثلاثة آلاف دينار وقال: اشتر بها دارًا فأخذها ولم ينفقها فلما أراد الرشيد الشخوص قال لمالك: ينبغي أن تخرج معنا قال: عزمت أن أحمل الناس على الموطأ كما حمل عثمان الناس على القرآن فقال أما حمل الناس على الموطأ فليس إليه سبيل لأن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم افترقوا بعده في الأمصار فحدثوا فعند كل أهل مصر علم وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :♂**اختلاف أمتي رحمة**═ وأما الخروج معك فلا سبيل إليه قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :♂**المدينة خير لهم لو كانوا يعلمون**═ وقال عليه الصلاة والسلام:♂**المدينة تنفي خبثها كما ينفي الكير خبث الحديد**═ وهذه دنانيركم كما هي إن شئتم فخذوها وإن شئتم فدعوها يعني إنك إنما كلفتني مفارقة المدينة لما اصطنعته إلي فلا أؤثر الدنيا على مدينة الرسول صلى الله عليه وسلم فهكذا كان زهد مالك في الدنيا [1].

إني أستحي من الله تعالى أن أطأ تربة فيه نبي الله صلى الله عليه وسلم **بحافر دابة:**

ولما حملت إليه الأموال الكثيرة من أطراف الدنيا لانتشار علمه وأصحابه كان يفرقها في وجوه الخير ودل سخاؤه على زهده وقلة حبه للدنيا وليس الزهد فقد المال وإنما الزهد فراغ القلب عنه ولقد كان سليمان عليه السلام في ملكه من الزهاد ويدل على احتقاره للدنيا ما روي عن الشافعي أنه قال: رأيت على باب مالك كراعًا من أفراس خراسان وبغال مصر ما رأيت أحسن منه فقلت لمالك: ما أحسنه فقال: هو هدية مني إليك يا أبا عبد الله فقلت: دع لنفسك منها دابة تركبها فقال: إني أستحي من الله تعالى أن أطأ تربة فيه نبي الله صلى الله عليه وسلم بحافر دابة.

(1) الحطة في ذكر الصحاح الستة، 1 / 232.

والعلم يؤتى ولا يأتي:

وروي عنه أنه قال: دخلت على هارون الرشيد فقال لي: يا أبا عبدالله ينبغي أن تختلف إلينا حتى يسمع صبياننا منك الموطأ قال: فقلت أعز الله مولانا الأمير إن هذا العلم منكم خرج فإن أنتم أعززتموه عز وإن أنتم أذللتموه ذل والعلم يؤتى ولا يأتي فقال: صدقت أخرجوا إلى المسجد حتى تسمعوا مع الناس.

عسى أن يعلموا أي عمل وقع لوجه الله تعالى:

ومن كلامه لا ينبغي للعالم أن يتكلم بالعلم عند من لا يطيقه فإنه ذل وإهانة للعلم ولما صنف كتاب الموطأ في الحديث عمل علماء المدينة الموطآت على منواله فقيل لمالك قد شاركك الناس في مثل هذا التصنيف فلم تكلف هذا القدر نفسك قال: ائتوني بها أنظرها فلما نظر فيها قال عسى أن يعلموا أي عمل وقع لوجه الله تعالى فكان كذلك ولم يبق لموطآت الآخرين اسم ولا رسم إلا ما يذكر من موطأ ابن أبي ذئب وأما موطأ مالك فهو مخدوم طوائف الأنام وبضاعة الاجتهاد لعلماء الإسلام والقبول بقدر النية.

ما أشكل عليك فاسأله عن مالك بن أنس:

وكان من عباد وقته وأصحاب عبدالله بن المبارك أنه قال: رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم في المنام وقلت: يا رسول الله قد مضى عصرك وانقضى فإن وقع لي شك وشبهة في الخاطر في أمر من أمور الدين فممن أتحققه قال: ما أشكل عليك فاسأله عن مالك بن أنس.

ورأيت مالكًا قائمًا بين يديه:

وروي أيضا عن مطرف أن أبا عبدالله من موالي الليثيين قال: تشرفت بزيارة رسول الله صلى الله عليه وسلم أي في النوم فرأيته جالسًا في المسجد وحوله رجال كالحلقة ورأيت مالكًا قائمًا بين يديه وعنده صلى الله

عليه وسلم مسك يعطيه مالكًا قبضة قبضة ومالك ينثره على الناس فعبرت هذه الرؤيا بظهور العلم النبوي أولاً في مالك ثم بواسطته في الآخرين.

مالك وارث سريري:

وروي أيضًا عن محمد بن رمح التجيبي المصري أستاذ مسلم بن الحجاج صاحب الصحيح أنه قال: رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم في النوم وقلت: نحن مختلفون في مالك وليث أيهما أعلم فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : مالك وارث سريري ففهمت حينئذ المراد به أنه وارث علمي [1].

اقتلوا هذا الزنديق:

وروي عن يحيى بن خلف بن الربيع الطرطوسي وكان من صلحاء عصره وعباد دهره أنه قال: حضرت يومًا عند مالك فأتى رجل وقال: ما نقول في القرآن أهو مخلوق أم لا؟ فقال الإمام: اقتلوا هذا الزنديق فإنه سيتولد في كلامه فتن كثيرة وقد عمت البلوى بعد مالك في هذه المسألة وقتلت جماعات كثيرة من أهل السنة على عدم القول بها.

وكذا روي عن جعفر بن عبدالله أنه قال: كنا عند مالك فسأله رجل عن تفسير قوله تعالى{ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ ۝٥} [طه: ٥] كيف هذا الاستواء فأظهر مالك الملال الكثير من هذا السؤال وأطرق مليًا وتفكر كثيرًا حتى عرق جبينه ثم قال: الكيف منه معقول والاستواء منه مجهول والإيمان به واجب والسؤال عنه بدعة ثم أمر بإخراجه.

فافهم:

وروي عن أبي عروبة وهو من أولاد الزبير رضي الله عنه قال: كنا جلوسًا عند مالك يومًا فإذا رجل أتى وذكر نقائص الصحابة ومساوئهم فقال مالك: اسمع ثم تلا هذه الآية{مُّحَمَّدٞ رَّسُولُ ٱللَّهِۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلۡكُفَّارِ رُحَمَآءُ

(1) الحطة في ذكر الصحاح الستة، 1 / 236.

بَيْنَهُمْ } [الفتح: ٢٩] حتى بلغ إلى{لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَ} [الفتح: ٢٩] ثم قال من كان في باطنه سيء الظن بالصحابة ويعيش عدوا لهم فهو داخل في هذا اللفظ فافهم.

أفلا ينبغي لي أن أعزه وأجله!:

وذكر أن هارون الرشيد لما قدم المدينة المنورة لزيارة النبي صلى الله عليه وسلم ، وذلك في بعض حجاته، وجه يحيى بن خالد البرمكي إلى الإمام مالك بن أنس - رضي الله تعالى عنه: احمل إليَ كتابك الذي صنعت - يعني الموطأ - أسمعه عليك، فقال مالك ليحيى: أقرئُهُ السلام، وقل له؛ العلم يزار، ولا يزور، ويؤتى ولا يأتي، فرجع إلى هارون الرشيد وأخبره، ثم قال يحيى: يا أمير المؤمنين، يبلغ أهل العراق أنك وجهت إلى مالك بأمر فخالفك، اعزم عليه حتى يأتيك، فبينما هم كذلك إذا بمالك قد دخل وليس معه الكتاب، جاء مسلماً على الخليفة، فسلم وجلس، فقال له هارون: يبلغ أهل العراق أني سألتك أمراً من الأمور سهلاً فأبيت علي، فقال مالك: يا أمير المؤمنين، إن الله قد جعلك في هذا الموضع، فلا تكنْ أول من ضيع العلم؛ فيضيعك الله تعالى، ولقد رأيت من ليس هو في حسبك ونسبك يعز هذا العلم ويجله، فأنت أحرى أن تجله، ولم يزل يعظه ويعدد عليه حتى بكى، ثم قال مالك: أخبرني الزهري، عن خارجة، عن زيد بن ثابت قال: كنت أكتب الوحي عند رسول الله صلى الله عليه وسلم :{لَّا يَسْتَوِي ٱلْقَٰعِدُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُوْلِي ٱلضَّرَرِ وَٱلْمُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ} [النساء: ٩٥]، وابن أم مكتوم عند النبي صلى الله عليه وسلم فقال: يا رسول الله، أنا رجل ضرير، فهل لي رخصة - يعني في ترك الجهاد - فقال - عليه الصلاة والسلام -:♂**لا أدري**═، قال زيد: وقلمي رطب ما جف، حتى غشي النبي صلى الله عليه وسلم الوحي، ثم سرى عنه، فقال: " اكتب يا زيد:{ غَيْرُ أُوْلِي ٱلضَّرَرِ} [النساء: ٩٥]، قال: فحرف واحد يا أمير المؤمنين بعثَ فيه الملك جبريل من مسيرة خمسين ألف عام، حتى نزل على النبي صلى الله

عليه وسلم أفلا ينبغي لي أن أعزه وأجله؟ قال: بلى، ثم إن هارون أتى إلى منزل الإمام مالك، فسمع منه الكتاب، ووفقه الله للصواب.

ما ظننت أن أهل العلم يتكلمون بمثل هذا:

واجتمع القاضي أبو يوسف بالإمام مالك عند الرشيد، فقال له القاضي أبو يوسف: ما تقول فيمن سها بزيادة في الصلاة؟ فقال الإمام مالك: يسجد للسهو بعد السلام، فقال: فإن سها بهما، فقال: يسجد قبل السلام، فقال أبو يوسف ملتفتاً إلى الرشيد: الشيخ تارة يخطئ وتارة لا يصيب، فظن الإمام مالك أنه يقول: تارة يخطئ، وتارة يصيب، فقال: على هذا أدركنا مشايخنا من السلف الصالح، ثم نبه الإمام مالك لقول أبي يوسف ومراده، فقال: ما ظننت أن أهل العلم يتكلمون بمثل هذا، قلت: رحم الله الإمام مالكاً، ورضي عنه، فما أغفله عن مظان السوء، وما أسلم فطرته، وأخلص نيته، وأصدق طويته حيث لم يخطر بباله ذلك، ولا خطر بباله أن يخطر ببال أهل العلم [1].

خذ بيد سيدك إليك:

قال الشافعي رضي الله عنه فقلت: حدثنا مالك عن نافع عن ابن عمر وأشرت بيدي إلى القبر كإشارته حتى أعدت عليه خمسة وعشرين حديثا حدث بها من حين جلس إلى وقت قطع المجلس وسقط القرص فصلى مالك المغرب وأقبل على عبده وقال: خذ بيد سيدك إليك وسألني النهوض معه.

قال الشافعي رحمه الله: فقمت غير ممتنع إلى ما دعا من كرمه فلما أتيت الدار أدخلني الغلام إلى خلوة في الدار وقال لي: القبلة في البيت هكذا وهذا إناء فيه ماء وهذا بيت الخلاء. قال الشافعي رضي الله عنه: فما لبث مالك رضي الله عنه حتى أقبل هو والغلام حاملاً طبقا فوضعه من يده وسلم الإمام عليَّ ثم قال للعبد: اغسل علينا ثم وثب الغلام إلى الإناء وأراد

(1) العصامي، سمط النجوم العوالي في أنباء الأوائل والتوالي، 204/2 - 205.

أن يغسل عليَّ أولاً فصاح عليه مالك قال: الغسل في أول الطعام لرب البيت وفي آخر الطعام للضيف.

قال الشافعي رضي الله عنه: فاستحسنت ذلك من الإمام مالك رضي الله عنه وسألته عن شرحه فقال أنه يدعو الناس إلى كرمه فحكمه أن يبتدىء بالغسل وفي آخر الطعام ينتظر من يدخل فيأكل معه.

قال الشافعي رضي الله عنه: فكشف الإمام رضي الله عنه الطبق فكان فيه صفحتان في إحداهما لبن والأخرى تمر فسمى الله تعالى وسميت فأتيت أنا ومالك على جميع الطعام وعلم مالك أنا لم نأخذ من الطعام الكفاية فقال لي: يا أبا عبد الله هذا جهد من مقل إلى فقير معدم فقلت: لا عذر على من أحسن إنما العذر على من أساء.

قال الشافعي رضي الله عنه: فأقبل مالك يسألني عن أهل مكة حتى دنت العشاء الآخرة ثم قام عني وقال: حكم المسافر أن يقل تعبه بالاضطجاع فنمت ليلتي فلما كان في الثلث الأخير من الليل قرع عليَّ مالك الباب فقال لي: الصلاة يرحمك الله فرأيته حاملاً إناء فيه ماء فتبشع عليَّ ذلك فقال لي: لا يرعك ما رأيته فخدمة الضيف فرض.

قال الشافعي رضي الله عنه: فتجهزت للصلاة وصليت الفجر مع الإمام مالك في مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم والناس لا يعرف بعضهم بعضًا من شدة الغلس وجلس كل واحد منا في مصلاه يسبح الله تعالى إلى أن طلعت الشمس على رؤوس الجبال فجلس مالك في مجلسه بالأمس وناولني الموطأ أمليه وأقرؤه على الناس وهم يكتبونه.

قال الشافعي رضي الله عنه: فأتيت على حفظه من أوله إلى آخره وأقمت ضيف مالك ثمانية أشهر فما علم أحد من الأنس الذي كان بيننا أينا الضيف ثم قدم على مالك المصريون بعد قضاء حجهم للزيارة واستماع الموطأ. قال الشافعي فأمليت عليهم حفظاً منهم عبد الله بن عبد الحكم

وأشهب وابن القاسم قال الربيع: وأحسب أنه ذكر الليث بن سعد ثم قدم بعد ذلك أهل العراق لزيارة النبي صلى الله عليه وسلم .

قال الشافعي رضي الله عنه: فرأيت بين القبر والمنبر فتى جميل الوجه نظيف الثوب حسن الصلاة فتوسمت فيه خيراً فسألته عن اسمه فأخبرني وسألته عن بلده فقال: العراق فقلت: أي العراق فقال: لي الكوفة فقلت من العالم بها والمتكلم في نص الكتاب والمفتي بأخبار رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال لي: أبو يوسف ومحمد بن الحسن صاحبا أبي حنيفة رضي الله عنه.

وقال الشافعي رضي الله عنه: فقلت ومتى عزمتم تظعنون؟ فقال لي: في غداة غد وقت الفجر فعدت إلى مالك فقلت له خرجت من مكة في طلب العلم بغير استئذان العجوز أفأعود إليها أو أرحل في طلب العلم فقال لي: العلم فائدة يرجع منها إلى فائدة ألم تعلم أن الملائكة تضع أجنحتها لطالب العلم رضاء بما يطلبه [1].

قال الشافعي رضي الله عنه: فلما أزمعت على السفر زودني الإمام مالك رضي الله عنه فلما كان في السحر سار معي مشيعًا إلى البقيع ثم صاح بعلو صوته من يكري راحلته إلى الكوفة فأقبلت عليه وقلت: بم تكتري وليس معك ولا معي شيء؟ فقال لي: انصرفت البارحة بعد صلاة العشاء الآخرة إذ قرع عليَّ قارع الباب فخرجت إليه فأصبت ابن القاسم فسألني قبول هديته فقبلتها فدفع لي صرة فيها مائة دينار وقد أتيتك بنصفها وجعلت النصف لعيالي فاكترى لي بأربعة دنانير ودفع إليَّ باقي الدنانير وودعني وانصرف وسرت في جملة الحاج حتى وصلت إلى الكوفة يوم رابع عشرين من المدينة فدخلت المسجد بعد صلاة العصر وصليت فبينما أنا كذلك إذ رأيت غلامًا قد دخل المسجد وصلى العصر فما أحسن الصلاة

(1) ابن حجة الحموي، ثمرات الأوراق، 1 / 86.

فقمت إليه ناصحًا فقلت له: أحسن صلاتك لئلا يعذب الله هذا الوجه الجميل بالنار فقال لي: أنا أظن أنك من أهل الحجاز لأن فيكم الغلظة والجفاء وليس فيكم رقة أهل العراق وأنا أصلي هذه الصلاة خمس عشرة سنة بين يدي محمد بن الحسن وأبي يوسف فما عابا عليَّ صلاتي قط وخرج معجبًا ينفض رداءه في وجهي فلقي للتوفيق محمد بن الحسن وأبا يوسف بباب المسجد فقال: أعلمتما في صلاتي من عيب فقالا: اللهم لا قال: ففي مسجدنا هذا من عاب صلاتي فقالا: اذهب إليه فقل له بم تدخل في الصلاة؟

قال الشافعي رضي الله عنه فقال لي يا من عاب صلاتي بم تدخل في الصلاة؟ فقلت: بفرضين وسنة فعاد إليهما وأعلمهما بالجواب فعلما أنه جواب من نظر في العلم فقالا: اذهب إليه فقل له ما الفرضان؟ وما السنة؟ فأتى إليَّ فقال: ما الفرضان وما السنة فقلت له: أما الفرض الأول فالنية والثاني تكبيرة الإحرام والسنة رفع اليدين فعاد إليهما فأعلمهما بذلك فدخلا إلى المسجد فلما نظرا إليَّ أظنهما ازدرياني فجلسا ناحية وقالا: اذهب إليه وقل له أجب الشيخين.

وقال الشافعي رحمه الله تعالى فلما أتاني علمت إني مسؤول عن شيء من العلم فقلت: من حكم العلم أن يؤتى إليه وما علمت لي إليهما حاجة قال الشافعي رضي الله عنه فقاما من مجلسهما إليَّ فلما سلما عليَّ قمت إليهما وأظهرت البشاشة لهما وجلست بين أيديهما فأقبل علي محمد بن الحسن وقال أحرمي أنت؟ فقلت: نعم، فقال: أعربي أم مولى؟ فقلت: عربي، فقال: من أي العرب؟ فقلت: من ولد المطلب قال: من ولد من قلت من ولد شافع قال: رأيت مالكا قلت من عنده أتيت قال لي: نظرت في الموطأ قلت أتيت على حفظه فعظم ذلك عليه ودعا بداوة وبياض وكتب مسألة في الطهارة ومسألة في الزكاة ومسألة في البيوع والفرائض والرهان والحج والإيلاء ومن كل باب في الفقه مسألة وجعل بين كل مسألتين بياضًا ودفع إليَّ

الدرج وقال أجب عن هذه المسائل كلها من الموطأ.

قال الشافعي رضي الله عنه: فأجبت بنص كتاب الله وبسنة نبيه عليه الصلاة والسلام وإجماع المسلمين في المسائل كلها ثم دفعت إليه الدرج فتأمله ونظر فيه ثم قال لعبده خذ سيدك إليك. قال الشافعي رضي الله تعالى عنه ثم سألني النهوض مع العبد فنهضت غير ممتنع فلما صرت إلى الباب قال لي العبد: إن سيدي أمرني أن لا تسير إلى المنزل إلا راكبًا. قال الشافعي رضي الله تعالى عنه فقلت له: قدم فقدم إلي بغلة بسرج محلى فلما علوت على ظهرها رأيت نفسي بأطمار رثة فطاف بي أزقة الكوفة إلى منزل محمد بن الحسن وما هم فيه فبكيت وقلت أهل العراق ينقشون سقوفهم بالذهب والفضة وأهل الحجاز يأكلون القديد ويمصون النوى ثم أقبل عليَّ محمد بن الحسن وأنا في بكائي فقال: لا يروعك يا عبد الله ما رأيت فما هو إلا من حقيقة حلال ومكتسب وما يطالبني الله فيها بفرض وإني أخرج زكاتها في كل عام فأسرَّ بها الصديق وأكبت بها العدو [1].

أطع أباك ولا تعص أمك:

قال للإمام الليثي بن سعد أن أبي ببلاد السودان وقد كتب إلي أن أذهب إليه فمنعتني أمي قال: أطع أباك ولا تعص أمك فسأل الإمام مالك عن ذلك فقال: أطع أباك ولا تعص أمك قال مؤلفه رحمه الله تعالى الذي فهمته من قول الإمام عنه أن طاعة الأم أمر لازم وأولى لأن قوله أطع أباك مصلحة، وقوله لا تعص أمك أمر بترك المفسدة وترك المفاسد أولى من جلب المصالح إلا في مسألة: جلب المصلحة أولى من دفع المفسدة وذلك فيما لو ماتت في جوفها ولد يرجى حياته فشق جوفها مفسدة وإخراج الولد مصلحة فإخراج الولد هنا واجب قال في الروضة في باب الهبة يسن للولد أن يعدل في هبته لأبويه كما يسن للوالد أن يعمل في هبته لأولاده أي البارين فإن أراد الولد أن يزيد أحد أبويه على الآخر فالأم أولى.

(1) ابن حجة الحموي، ثمرات الأوراق، 1 / 87.

حضر أبو حنيفة درس الإمام مالك ولم يعرفه فألقى الإمام مالك سؤالاً على أصحابه فأجابه أبو حنيفة فقال: من أين الرجل؟ قال: من أهل العراق، قال: من أهل بلد النفاق والشقاق فقال: تأذن لي أن أقول شيئا من القرآن قال: نعم فقرأ وممن حولكم من الأعراب منافقون ومن أهل المدينة مردوا على النفاق فقال الإمام مالك ما قال الله هكذا فقال أبو حنيفة كيف قال الله قال ومن أهل المدينة فقال الحمد لله الذي حكمت على نفسك ووثب من مجلسه فلما عرفه أكرمه [1].

يا غلام من أين لك هذا!:

كان الإمام الشافعي رضي الله تعالى عنه جالساً بين يدي الإمام مالك بن أنس رضي الله تعالى عنه، فجاء رجل فقال لمالك: إني رجل أبيع القماري[2]، وإني بعت في يومي هذا قمرياً فرده علي المشتري، وقال: قمريك لا يصيح، فحلفت له بالطلاق أنه لا يهدأ من الصياح، فقال له الإمام مالك: طلقت زوجتك ولا سبيل لك عليها وكان الإمام الشافعي يومئذ ابن أربع عشرة سنة، فقال لذلك الرجل: أيما أكثر: صياح قمريك أم سكوته؟ فقال: لا بل صياحه، فقال: لا طلاق عليك. فعلم بذلك الإمام مالك، فقال: يا غلام من أين لك هذا؟ فقال: لأنك حدثتني عن الزهري، عن أبي سلمة بن عبد الرحمن، عن أم سلمة أن فاطمة بنت قيس قالت: يا رسول الله إن أبا جهم ومعاوية خطباني، فقال صلى الله عليه وسلم :♂**أما معاوية فصعلوك لا مال له وأما أبو جهم فلا يضع عصاه عن عاتقه**═.

وقد علم رسول الله صلى الله عليه وسلم أن أبا جهم كان يأكل وينام ويستريح، وقد قال صلى الله عليه وسلم :♂**لا يضع عصاه**═ على المجاز، والعرب تجعل أغلب الفعلين كمداومته، ولما كان صياح قمري هذا أكثر من سكوته، جعلته كصياحه دائماً. فتعجب الإمام رضي الله تعالى عنه من

(1) الصفوري، نزهة المجالس ومنتخب النفائس، 1 / 221، 2 / 315.
(2) والقُمْريّ: ضرب من الطير، الذكر قُمْريّ والأنثى قُمْريّة، والجمع القَماريّ.

احتجاجه، وقال له: أفت فقد آن لك أن تفتي فأفتى من ذلك السن[1].

من كلام الإمام مالك:

وقال الإمام مالك رضى الله عنه: ما ظهر من هذا الدين فهو حق، وما بطن منه باطل لقوله تعالى:{لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ} [التوبة: ٣٣] فهؤلاء إن اعتقدوا بأن الخلوة بالأحداث والنظر إليهم مباح فقد كفروا، ويجب على ولاةَ الأمور - أيدهم الله - قتلهم، وتطهير الأرض منهم إن لم يتوبوا. وإن اعتقدوا أنه حرام فقد فسقوا وتسقط عدالتهم فيجب على وُلاة الأمور - أيدهم الله تعالى - تعزيزهم التعزيز البالغ، وزجرَهم وردعهم عن ذلك فإن لم يرجعوا عن هذا قاتلوهم. وأما الذي حلفوه أنه لا يعاشر أهل السنة فإنه لا يجب بمعاشرة أهل السنة كفارة عليه فإنه مكره على اليمين انتهى. ثم أجاب بجواب آخر فقال: لاشك أن أهل السنة صفوة هذه الأمة فمن تابعهم، واقتدى بهم فقد سلك طريق الحق، وسبيل الناجحين ومن ضل عن طريقهم فقد ضل عن الهدى، وسلك طريق الهالكين. وهؤلاء قوم ارتكبوا بِدْعاً، ومحرماتٍ وأموراً منكرات لم يردعن أحد من أئمة السلف بجواز ما يفعلونه إن أصروا على ذلك، فهي من الكبائر الموبقات، وإن اعتقدوا إباحة؛ فربما يؤدي إلى الكفر؛ لأنه من القواعد أنه من اعتقد إباحة محرمٍ فقد كفر؛ فيجب عليهم التوبة من ذلك، والرجوع إلى الحق، واتباع الهدى، فإن لم يفعلوا وجب على ولاة الأمور - أيدهم الله تعالى - تعزيرهم التعزير البليغ، وزجرهم عن ذلك ورجوعهم إلى طريق الحق. وأما من أكره الحلف فلا كفارة عليه إذا رجع وتابع أهل السنة [2].

وقال الإمام مالك رحمه الله: لن يصلح آخر هذه الأمة إلا بما صلح به أولها.

خرج أهل الدنيا ولم يذوقوا أطيب ما فيها، قالوا: وما هو يا أبا يحيى؟

(1) كمال الدين محمد بن موسى بن عيسى الدميري، حياة الحيوان الكبرى، 2 / 352.
(2) المشتولي، سلوة الأحزان للاجتناب عن مجالسة الأحداث والنسوان، 1 / 62.

قال: معرفة الله.

ما تنعم المتنعمون بمثل ذكر الله - عز وجل.

إن الصديقين إذا قرىء عليهم القرآن طربت قلوبهم إلى الآخرة.

ما من أعمال البر شيء إلا دونه عقبه؛ فإن صبر صاحبها أفضت به إلى رَوْح، وإن جزع رجع.

كم من رجل يحب أن يلقى أخاه ويزوره فيمنعه من ذلك الشغل، والأمر يعرض له، عسى الله أن يجمع بينهما في دار لا فرقة فيها.

ثم قال: وأنا أسأل الله أن يجمع بيننا وبينكم في ظل طوبى ومستراح العابدين.

قيل له: ادع لنا ربك، قال: إنكم تستبطئون المطر، وأنا أستبطأ الحجارة.

إن لله - تعالى - عقوبات في القلب، والأبدان: ضنكاً في المعيشة، ووهناً في العبادة، ومسخطة في الرزق.

سمع مالك رجلاً يقول: لو أعطاني الله - تعالى - بيتاً صغيراً لرضيت به.

فقال له مالك: ليتك يا ابن أخي زهدت في الدنيا كما زهدت في الجنة.

الخوف من العمل ألا يتقبل أشد من العمل.

كفى بالمرء شراً ألا يكون صالحاً، ويقع في الصالحين.

وجد في بعض الكتب: سبحوا الله - أيها الصديقون - بأصوات حزينة.

قال لقمان لابنه: يا بني اتخذ طاعة الله تجارة تأتك الأرباح من غير بضاعة.

ليس بحليم من نفذ غضبه في حمار، أو هرة.

أشد ما على السفيه الإعراض عن جوابه، وإظهار عدم التأثير له.

مثل الدنيا مثل الحية، مسُّها ليِّنٌ، وفي جوفها السم القاتل، يحذرها ذوو العقول، ويهوي إليها الصبيان.

قال موسى - عليه السلام -: يا رب أين أبغيك! قال: أبغني عند المنكسرة قلوبهم.

ما أشد فطام الكبير.

لو استطعت أن لا أنام لم أنم؛ مخافة أن ينزل العذاب وأنا نائم، ولو وجدت أعواناً لفرَّقْتُهم في سائر الدنيا كلها: يا أيها الناس! النارَ النارَ.

ما عاقب الله - تعالى - قلباً بأشد من أن يسلب منه الحياء.

لم يبق لي من رَوْح الدنيا إلا ثلاثة: لقاء الإخوان، وتهجد بالقرآن، وبيتٌ خالٍ يُذْكَر الله فيه.

الإيمان قول وعمل، يزيد وينقص، وبعضه أفضل من بعض.

وسئل عن الإيمان فقال: قول وعمل. قيل: أيزيد وينقص؟ قال: قد ذكر الله سبحانه في غير آيٍ من القرآن أن الإيمان يزيد، فقيل: أينقص؟ قال: دع الكلام في نقصانه وكُفّ عنه، فقيل: فبعضه أفضل من بعض؟ قال: نعم.

وكان يقول: القرآن كلام الله، وكلام الله من الله، وليس من الله شيء مخلوق، ومن قال: القرآن مخلوق، فهو كافر، والذي يقف، أشد منه، يُسْتَتاب وإلا ضُربت عنقه.

وسأله أبو السَّمح قال: أيُرى الله يوم القيامة؟ فقال: نعم، يقول الله عز وجل:{وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴿٢٣﴾} [القيامة: ٢٢ - ٢٣]، وقال لقومٍ آخرين:{كَلَّآ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ ﴿١٥﴾} [المطففين: ١٥].

وسأله الوليد بن مسلم عن هذه الأحاديث التي فيها ذكر الرؤية فقال: أمِرّوها كما جاءت بلا كيف [1].

(1) (ترتيب المدارك): (1 / 170 - 171)، و(شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة): (1 /

وكان يقول: الله في السماء، وعلمه في كل مكان، لا يخلو منه شيء.

وسُئِل الإمام مالك: مَنْ أفضل الناس بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ فقال: أبو بكر، فقيل: ثم مَنْ؟ قال: عمر، قيل: ثم مَنْ؟ قال: عثمان، قيل: ثمَّ؟ فقال: هاهنا وقف الناس، رسول الله صلى الله عليه وسلم أمَّرَ أبا بكر على الصلاة، واختار أبو بكر عُمرَ، وجَعلها عمرُ إلى ستةٍ فاختاروا، فوقف الناس هاهنا [1].

وكان يقول: إن أهل السنة، الذين ليس لهم لقب يعرفون به؛ لا جَهْمي ولا قَدَري ولا رافضيّ.

- وليس لمن سبَّ أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم في الفيء حقٌّ، قد قسم الله الفيءَ على ثلاثة أصناف، فقال:{لِلْفُقَرَآءِ ٱلْمُهَٰجِرِينَ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُواْ مِن دِيَٰرِهِمْ } [الحشر: ٨]، وقال:{وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَٰنَ مِن قَبْلِهِمْ} [الحشر: ٩]، وقال:{وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلْإِيمَٰنِ} [الحشر: ١٠] وإنما الفَيْء لهؤلاء الثلاثة الأصناف.

وقال: أهل الأهواء بئس القوم، لا يُسَلَّم عليهم واعتزالهم أحب إلي.

وكان رحمه الله كثيرًا ما يتمثل بقول الشاعر:

وخَيُر أمورِ الدِّينِ ما كَانَ سُنَّةً ::: وشرُّ الأُمور المُحدَثَاتُ البَدائعُ[2]

رسالة الليث بن سعد إلى الإمام مالك:

ولعل من أفضل وأحسن أمثلة أدب الاختلاف تلك الرسالة العلمية الرائعة التي بعث بها فقيه مصر وإمامها وعالمها الليث بن سعد إلى الامام مالك، يعرض عليه فيها وجهة نظره في أدب جم

398). وانظر بعض أحاديث الرؤية في (حادي الأرواح) لابن القيم: (296 - 330)، و(شرح العقيدة الطحاوية) لابن أبي العز تحقيق د عبد الله التركي، والشيخ شعيب الأرنؤوط: (1 / 215 - 218).

(1) (ترتيب المدارك): (1 / 175).

(2) أدب الاختلاف في الإسلام، 1 / 29.

رفيع حول كثير مما كان الإمام مالك يذهب إليه ويخالفه فيه الليث بن سعد، ونظرًا لطول الرسالة نقتطف منها ما يشير إلى ذلك الأدب الرفيع الذي اختلف فيه ظله سلف هذه الأمة، وكرام علمائها، يقول الليث بن سعد:

سلامٌ عليك، فإني أحمد الله إليك الذي لا إله إلاَّ هو.

أما بعد: عافانا الله وإياك، وأحسن لنا العاقبة في الدنيا والآخرة.

قد بلغني كتابُك تذكر فيه من صلاح حالكم الذي يسرني، فأدام الله ذلك لكم، وأتمَّه بالعون على شكره، والزيادة من إحسانه، وذكرت نظرك في الكتب التي بعثتُ بها إليك، وإقامتك إياها، وختمك عليها بخاتمك وقد أتتنا، فجزاك الله عما قدمت منها خيرًا، فإنها كتب انتهت إلينا عنك، فأحببت أن أبلغ حقيقتها بنظرك فيها.

وذكرت أنه قد أنشَطك ما كتبتُ إليك فيه من تقويم ما أتاني عنك إلى ابتدائي بالنصيحة، ورجوت أن يكون لها عندي موضع وأنه لم يمنعك من ذلك فيما خلا إلا أن يكون رأيت فينا جميلاً، إلاَّ أني لم أذاكرك مثل هذا، وأنه بلغك أني أفتي بأشياء مخالفة لما عليه جماعة الناس عندكم، وإني يحق علي الخوف على نفسي لاعتماد من قبلي على ما أفتيتهم به، وأن الناس تبعٌ لأهل المدينة التي إليها كانت الهجرة، وبها نزل القرآن.

وقد أصبت بالذي كتبت به من ذلك إن شاء الله تعالى، ووقع مني بالموقع الذي تحب، وما أجد أحدًا يُنسب إليه العلم أكره لشَوادِّ الفتيا، ولا أشد تفضيلاً لعلماء أهل المدينة الذين مَضَوْا، ولا آخذ لفُتْياهم فيما اتفقوا عليه مني، والحمد لله رب العالمين لا شريك له.

وأما ما ذكرت من مقام رسول الله صلى الله عليه وسلم بالمدينة، ونزول القرآن بها عليه بين ظهراني أصحابه، وما علمهم الله منه، وأن

الناس صاروا به تبعًا لهم فيه، فكما ذكرت.

وأما ما ذكرت من قول الله تعالى:{وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى تَحْتَهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٠٠﴾} [التوبة: ١٠٠]. فإن كثيراً من أولئك السابقين الأوَّلين خرجوا إلى الجهاد في سبيل الله ابتغاءَ مرضاة الله، فجنَّدوا الأجناد، واجتمع إليهم الناس فأظهروا بين ظهرانَيْهم كتاب الله وسنة نبيه، ولم يكتموهم شيئًا علموه وكان من خلاف ربيعة لبعض ما مضى ما قد عرفت، وحضرت وسمعت قولك فيه، وقول ذوي الرأى من أهل المدينة: يحيى بن سعيد، وعبيد الله بن عمر، وكثير بن فَرقد، وغير كثير ممن هو أسَنُّ منه، حتى اضطرك ما كرهت من ذلك إلى فراق مجلسه.

وذاكرتُك أنت وعبد العزيز بن عبدالله بعض ما نعيب على ربيعة من ذلك، فكنتما من الموافقين فيما أنكرت؛ تكرهان منه ما أكرهه، ومع ذلك بحمد الله عند ربيعة خير كثير، وعقل أصيل، ولسان بليغ، وفضل مستبين، وطريقة حَسَنةٌ في الإسلام، ومودة صادقة لإخوانه عامة، ولنا خاصة، رحمه الله، وغفر له، وجزاه بأحسن ما عمله إلى أن قال في ختام رسالته. وأنا أحب توفيق الله إياك وطول بقائك لما أرجو للناس في ذلك من المنفعة، وما أخاف من الضيعة إذا ذهِبَ مثلك مع استئناسي بمكانك، وإن نَأتْ الدارُ، فهذه منزلتك عندي، ورأيي فيك فاسْتيقِنْه، ولا تترك الكتابَ إليَّ بخبرك وحالك وحال ولدِك وأهلك، وحاجةٍ إن كانت لك، أو لأحدٍ يُوصَلُ بك، فإنِّي أسرُّ بذلك.

كتبت إليك، ونحن صالحون، معافون، والحمد لله.

نسأل الله أن يرزقنا وإياكم شكر ما أولينا، وتمام ما أنعم به علينا،

والسلام عليك، ورحمة الله [1].

إن الإمام مالكًا عليه رحمة الله يقول: (لا يؤخذ هذا العلم من أربعة، ويؤخذ ممن سواهم: لا يؤخذ من سفيه، ولا يؤخذ من صاحب هوى يدعو إلى بدعته، ولا من كذّاب يكذب في أحاديث الناس وإن كان لا يتهم على حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولا من رجل له فضل وصلاح وعبادة إذا كان لا يعرف ما يحمل ويحدث به).

وقال أيضا: (إن هذا العلم دين، فانظروا عمن تأخذون دينكم، لقد أدركت سبعين ممن يقول: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم عند هذه الأساطين (وأشار إلى مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم) فما أخذت عنهم شيئا، وإن أحدهم لو اؤتمن على بيت مال كان أمينًا، إلا أنهم لم يكونوا من أهل هذا الشأن، وقدم علينا ابن شهاب فكنا نزدحم على بابه) [2].

العلم ينقص ولا يزيد ولم يزل العلم ينقص بعد الأنبياء والكتب.

والله ما دخلت على ملك من هؤلاء الملوك حتى أصل إليه إلا نزع الله هيبته من صدري.

اعلم أنه فساد عظيم أن يتكلم الإنسان بكل ما يسمع.

ما تعلمت العلم إلا لنفسي وما تعلمت ليحتاج الناس إلي وكذلك كان الناس.

ليس هذا الجدل من الدين بشيء.

لا يؤخذ العلم عن أربعة سفيه يعلن السفه وإن كان أروى

(1) محمد بن أبي بكر ابن قيم الجوزية، إعلام الموقعين عن رب العالمين دراسة وتحقيق: طه عبد الرؤوف سعد، مكتبة الكليات الأزهرية، مصر، القاهرة، 1388هـ/1968م، 103/3.

(2) طه جابر فياض العلواني، أدب الاختلاف في الاسلام، 1 / 29.

الناس وصاحب بدعة يدعو إلى هواه ومن يكذب في حديث الناس وإن كنت لا أتهمه في الحديث وصالح عابد فاضل إذا كان لا يحفظ ما يحدث به[1].

* * *

(1) المصدر: جماع العلم للشافعي: (242)، تاريخ خليفة بن خياط: 1 / 432، 2 / 719، طبقات خليفة: 275، المعارف لابن قتيبة: 498 - 499، المنتخب من كتاب ذيل المذيل للطبري: 106، 107، مشاهير علماء الامصار: ت (1110)، الحلية: 6 / 316، الفهرست لابن النديم مع تراجم أصحابه: 280 - 284، أنساب العرب لابن حزم: 1 / 435 436، الفهرست للطوسي: ت (740)، الانتقاء في فضائل الثلاثة الفقهاء: 9 - 63، طبقات الشيرازي: 67، ترتيب المدارك: 1 / 102 - 254، المبهمات في الحديث للنووي: 34 / 2، جزء فيه الأحاديث التي خولف فيها مالك بن أنس: تخريج الدارقطني 255 / 1 269 / 2، تذكرة الحفاظ لابن عبد الهادي: 49 / 2، صفة الصفوة: 2 / 177 - 180، الكامل لابن الاثير، 6 / 147، تهذيب الأسماء واللغات للنووي: 2 / 75 - 79، وفيات الاعيان 4 / 135 - 139، تهذيب الكمال: 1297، تذكرة الحفاظ: 1 / 207 - 213، العبر للذهبي:1 / 272، مرآة الجنان لليافعي: 1 / 373 - 377، البداية والنهاية: 10 / 174 - 175، الديباج المذهب: 1 / 55 - 139، تهذيب التهذيب: 10 / 5، النجوم الزاهرة لابن تغري بردي: 2 / 96 - 97، شرح البخاري للقسطلاني: 1 / 6، مفتاح السعادة طاش كبري زاده: 2 / 12، 84 - 88، التاريخ الكبير: 7 / 310، التاريخ الصغير 2 / 220، الطبقات الكبرى للشعراني: 45، شذرات الذهب: 2 / 12 - 15، تذهيب التهذيب: 4 / 14 / 2 - 1 / 2، الكاشف: 3 / 112، تاريخ ابن معين: 2 / 543 - 546، الانساب: 1 / 287، اللباب: 1 / 69، الرسالة المستطرفة: 13، مروج الذهب: 3 / 350، طبقات الحفاظ: 89، تاريخ الخميس: 2 / 333، طبقات القراء: 2 / 35. كتاب جامع الأصول - (1 / 180).